الحب الإلهي في الشعر الملحون الصوفي

عبد القادر العلمي نموذجا

عز الدين المعتصم

1- مفهوم الحب: يقصد بالحب في اللغة، "ميل النفس إلى ما تراه أو تظنه خيرا، والحبيب على وزن فعيل، يكون بمعنى محب أو بمعنى محبوب"(1). وللحب مراتب فصل فيها إبراهيم اليازجي قائلا: "وأول مراتب الحب الهوى: وهو ميل النفس ثم العلاقة: وهي الحب اللازم للقلب، ثم الكلف: وهو شدة الحب، ثم العشق: وهو أن يترع الحب شغاف القلب أي غلافها، ثم الجوى: وهو الحركة وشدة الوجد، ثم الدله: وهو ذهاب العقل من الهوى، ثم الهيام وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه"(2).

ويرى شوقي ضيف أن "للحب عند العرب منازل ومراتب متعددة، وأول مراتبه الهوى وهو الميل إلى المحبوب، ويليه الشوق وهو نزوع المحب إلى لقائه، ثم الحنين وهو شوق ممزوج برقة، ويليه الحب وهو أول الألفة، ثم الشغف وهو التمني الدائم لرؤية المحبوب، ويليه الغرام وهو التعلق بالمحبوب لا يستطيع المحب الخلاص منه، ثم العشق وهو إفراط في الحب ويغلب أن يلتقي فيه المحب والمحبوب، ثم التتيم وهو استعباد المحبوب للمحب، يقال تيمته حبا، ويليه الهيام وهو شدة الحب حتى يكاد يسلب المحب عقله، ثم الجنون وهو استلاب الحب لعقل المحب"(3).

يعتبر الحب مقولة أساسية ضمن أدبيات التصوف، بل هناك من الصوفية من يعتبر المحبة حالا من الأحوال أو مقاما من المقامات، لأن التجربة الصوفية مبنية في مبدئها على أساس الحب؛ لأنه دافع أساسي لخلق الوجود. وقد أورد القشيري في الرسالة عدة تعريفات للحب نذكر منها قوله: "وقيل هو مأخوذ من الحب، والحب جمعه حبة، حبة القلب ما به قوامه فسمي الحب حبا باسم محله"(4).

وقد ورد ذكر الحب في القرآن ثلاثين مرة(5)، إلا أن الصوفية قد اهتموا اهتماما كبيرا بالآية "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"(6) ، والآية "فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه"(7) وسبب اهتمام الصوفية بهاتين الآيتين على وجه الخصوص، هو إثبات الحب المتبادل بين الله والعبد.

ومن الأحاديث الصحيحة التي يكثر الصوفية من روايتها، الحديث القدسي الذي يقول فيه رب العزة: "لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها".

ولملامسة تجليات الحب الإلهي في شعر الشيخ عبد القادر العلمي، لابد من معرفة نظرة المتصوفة إلى الكون باعتباره الأصل الذي تتفرع عنه جميع الموجودات التي يتجلى فيها نور الذات الإلهية.

2- نظرة الصوفيين إلى الكون: استمد الصوفيون نظرتهم إلى الكون من الشرع الحنيف، "فهو ما خلق إلا لتظهر عليه تجليات الخالق، ولتبرز فيه أسرار حكمته وبديع صنعته، فظهور الحق فيه علة وجوده، فالكون هو "تجربة يعشقها العارف مع الله تعالى خارج حدود الزمان والمكان وما يرتبط به من تصورات عقلية لا تخرج عن نطاق عيانات الحس"(8).

يقول أدونيس: "إن اللغة الصوفية، هي تحديدا، لغة شعرية، وأن شعرية هذه اللغة تتمثل في أن كل شيء فيها هو ذاته وشيء آخر الحبيبة، مثلا، هي نفسها، وهي الوردة، أو الخمرة، أو الماء، أو الله، إنها صور الكون وتجلياته. ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن السماء أو الله أو الأرض. فالأشياء، في الرؤيا الصوفية، متماهية متباينة، مؤتلفة مختلفة، وهي في ذلك، تتناقض مع اللغة الدينية –الشرعية– حيث الشيء هو ذاته لا غير"(9).

ليس للكون وجود بذاته، وإنما يرجع وجوده إلى الذات الإلهية، فالموجود بذاته لذاته هو الحق سبحانه، والموجود لغيره هو الكون (العالم)، فالعالم كثير من حيث صوره، واحد من حيث حقيقته، مختلف في ظاهره، متماثل في باطنه، فيفرق الظاهر بين الموجودات فيقال: "عرش، وكرسي، وأفلاك، وأملاك، وعناصر، ومولدات، وأحوال تعرض، وما ثم في الحقيقة إلا الله"(10).

ويقول الشيخ عبد القادر العلمي في قصيدة "الفرج":

والعَرْشْ والقْلَمْ والكُرْسِي والبِيتْ والْمساجَدْ
بَيْتْ الطْوافْ والقُدْسْ ومَسْجِدْ النَّبِي المَاجَدْ
دَاوي للعَبْدْ اعْلاَلُه
سيدي أنْتَ العَالَمْ بِمَا ضَرُهْ حَاسْنُه بالعْلاَج (د. ص 165)

فكل ما في الوجود هو مظاهر لتجليات الذات الإلهية، فلولا الجمال المجازي ما أدركنا الجمال المطلق، ولهذا كان لابد من مخلوقات حسية تظهر فيها الذات الإلهية مثل: (المرأة، الجمال الأنثوي، الخمرة) إلى غير ذلك من الموجودات التي قال فيها الرسول الكريم (ص): "لم أنظر قط إلى شيء إلا أبصرت الله فيه".

وإذا كان الكل يعشق المرأة على أنها رمز الأنوثة، فكيف عشقها الشيخ عبد القادر العلمي؟ وكيف تغزل بها؟

3- صور الحب الإلهي في "عشاقيات" الشيخ العلمي :يتجسد حضور المحبة الإلهية داخل المتن الشعري "عشاقيات" في الشبكة المعجمية التالية:

- (الهوى – الغرام – العشق – العاشق...)(11)
- (الحب – العشق – الغرام – الهوى ...)(12)
- (الغرام – الهوى – الحب ...)(13)

تبرز المحبة من خلال هذا المعجم الصوفي، للدلالة على المحبة الإلهية في أبعادها الشمولية، فصيغ "الهوى، الحب، الغرام، والعشق لا تدل على الانقياد للمحبوب والانجذاب نحوه فقط، ولكنها تفيد كذلك ما تمارسه المحبة من فعل خلاق على الذات المحبة. يقول العلمي في قصيدة "فضيلة":

بَحْرْ الغْرامْ غارَقْ وغميق ومالِي
كُلْ انْهارْ إيفِيضْ ويحْمَلْ كَمَّنْ رايَسْ في اتْخُومُه انجلى
نَوْرِيكْ طَبْعْ الهْوى يا مَنْ يَصْغى لي
ريحْ اهْواهْ إيشَوَّشْ العْقَلْ ويفِيَّقْ ضَرْ السْهُو والغَفْلـــــة
في الحُبْ والهْوى لامُونِي عُدَّالِي
وحكامْ المُولى إلى انْزَلْ ما تَنْفَعْ في امقادر اللّٰه حيلـــة (د. ص260)

توسل (سيدي قدور) العلمي في الحب الإلهي بالمرأة، وجعله رمزا للمحبة المطلقة، لأنها تمثل لدى المتصوفة أتم وأكمل تجل للألوهية، يقول ابن عربي: "فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل... إذ لا يشاهد الحق مجردا عن المواد أبدا"(14).

ومثل هذا التصور، الذي يتخذ من المرأة رمزا للتعبير عن مواجيد المحبة الإلهية، يعتبر الخاصية الإنسانية والأنثوية للمرأة، مظهرا من مظاهر الجمال الإلهي، فالمرأة قادرة على التوحيد بين الإلهي والإنساني تحقيقا لتجل أكمل للألوهية، وهو ما عبر عنه كوربان Corbin بـــ "ديناميكتيك الحب"(15).

لقد كثرت في "عشاقيات" العلمي الروحية، الخاصة بالمحبة الإلهية، أسماء النساء، كفاطمة وطامو واخديجة وارقية وفضيلة وحجوبة والطاهرة وكلثوم... غير أن شاعرنا لا يقف في وصفه للمرأة عند حدود الصورة، كما هو حال غيره، وإنما يتعداها إلى الروح والمعنى، فهو يعشق الجمال المطلق، متعاليا على الصور الجزئية، شأنه في ذلك شأن ابن الفارض الذي يرى أن الجمال البشري المتجسد في المرأة بمثابة تعيين إلهي. ومن تم لا حرج أن يتغزل الشاعر الصوفي بالمرأة، باعتبارها مظهر التجلي الإلهي الأكمل على الوجود باسمه تعالى. وقد اعتبر بن عربي: "أن أتم شهود للحق وأكمله يتم في المرأة"(16).

يقول العلمي في قصيدة "صابغ الانجال" أو "الصايلة":

حُبْ الحَسَنْ كيْتَيَّه بْهْواهْ اجْوارَحْ الرْجالْ
ويكَسَّرْ ثُوبَة الفْضالْ
ويجيبْ العاشْقينْ أسْرى للسجْنْ بلا امْقاتْلة
الحُبْ امْنينْ كيظهر غْلْبُه عن عاشَقْ الجْمالْ
يَخْفى له الحَقْ والفْصالْ(17)

ويقول في قصيدة "فاطمة":

الحُسْن أميرْ حاكَم في العُشَّاقْ بالقْهَرْ حازْ القَلْبْ وهيبَة النصْرْ
لا بطــلْ اسْــقــيــرْ يَلْقاهْ في يُومْ الْملاطْمَــة(18)

نلمس في هذه الأبيات وصف الجمال الفاتن الذي يأسر الأفئدة ويقهر القلوب المتعطشة للوجد، والإحساس بالجمال شعور موجود لدى الإنسان البدائي مثلما هو عند أكثر الناس تحضرا، وهو موجود في كل مكان، وفي كل شيء، وهذا الإنسان يحسه ويدركه إذا شاء.

يحس الجمال بدرجات متفاوتة، لكن يصعب وصفه بصفة واحدة، ومن ثمة لا يمكن تحديده بصفة مطلقة، لأن "القانون الأوحد للجمال، أنه ليس للجمال قانون"(19).

والجميل في المتخيل الشعبي هو ما ينشئ في الذهن فكرة سامية عن الشيء، فيبعث في النفس عاطفة السرور منه، والإعجاب به.

يقول الشاعر العلمي في قصيدة "المزيان"، الصفحة 304:

لَبْسَكْ مُول المُلْك من الجْمال تِيجان وقَلْدَك من هِيبَة البْها بْسيف ناحَر
بُرْهْمَان امْنَظَّم في سْلُوك من العُقْيَان أَوْ تَاجْ امْكَلَّلْ مَرْكُوم بالجْواهَــر

ويقول في قصيدة "البتول I"، الصفحة 265:

عَوضْ حُسْنْ ابْهاها ما شافْتُه انْجالِي والنَّظْرَة في اجْمالْها كَتْفَجِي الهَــوْل
امْثِيل قامَة شِي رايَة قَدْهَا المالِـــــي أو بْلَنْزة احْكيتْ في الرُّوضْ المَكْدُول

يتضح أن الشيخ عبد القادر العلمي اهتم بجانب الجمال حين سعى إلى تجسيده والتعبير عنه في قالب شعري رمزي يوحي بالسمو، ولإبراز الدلالات السامية التي يزخر بها هذا الجمال في نظر الشاعر، نجد لزاما علينا تحديد مفهوم السامي، ولاسيما أن ثمة نوعا من الترادف اللغوي والاصطلاحي بينه وبين الجليل.

يتحدد مفهوم السامي "بالعظمة المادية والروحية التي تتطلب منا جهدا إدراكيا غير عادي، أو تتطلب إعمال قدر عال نسبيا من الملكات الذهنية والنفسية، من أجل استيعابها الجمالي من دون الإحساس بالعجز أو القصور تجاهها، علاوة على استعلاء مشاعر الحماسة والتبجيل لها، في أثناء عملية الاستيعاب، وفي تقويمها النهائي"(20).

فالجمال الذي يتغنى به العلمي، في البيتين السالفين، هو جمال سام ليس له نظير، حيث يقدم المرأة بوصفها برهة سعادة ومجالا للافتتان، حيث الوصف الحسي لجمال المعشوقة وفتنتها وشدة أسرها، بيد أنه لا يقصد – في مجمل عشاقياته – امرأة بعينها وإنما يقصد الذات العلية، والمحبة الإلهية، التي تعتبر عند شعراء التصوف محبة مطلقة وأزلية.

ومن هنا، يتضح أن شاعرنا جمع بين الحب الإنساني والحب الإلهي، وعبر عنه بطابع روحي، ومن ثم فإن التوسل بالمرأة، ما هو إلا مطية ينطلق منها الشاعر الصوفي من النسبي إلى المطلق الكامل، الذي يجعله يتشوق إلى سدرة المنتهى.

ينظر الشيخ العلمي إلى المرأة كما نظر إليها الإسلام الحنيف، فهي نصف المجتمع الفاعل في بناء الأسرة والمجتمع، وهي معشوقته ومصدر وحيه وإلهامه، وبها يكون التجلي الأكمل للجمال، الجمال الذي قال فيه سقراط: "سبب الجمال حب النفع"(21) وقال فيه أفلاطون: "الجمال أمر إلهي أزلي موجود في عالم العقل غير قابل للتغيير، قد تمتعت الأرواح به قبل هبوطها إلى الأجسام، فلما نزلت إلى الأجسام صارت كما رأت شيئا على مثال ما عهدته في العوالم العقلية وهي عالم المثال، مالت إليه لأنه مألوفا من قبل هبوطها"(22).

سمو الجمال الأنثوي: ويتجلى السمو في الغزل الصوفي عند الشيخ عبد القادر العلمي من خلال قصائد "العشاقي"، في اللائحة المعجمية التالية:

– "الحسن، الزهو، الغزال، بدري، ابهاك، الزين ..."(23)

- "بدر الدجا، الحسن البهيج، ضي الشمعة، الوضاح، ضيا هلالي، ابهاك"(24)
- "البدر – البرق – الحسن – التنوير – الزهو"(25)

فالمتعة أو اللذة الجمالية التي تقترحها هذه التجربة أمام المتلقي، من خلال هذه المتوالية المعجمية، هي متعة الزهو أو التعالي الذاتي، ومن المفيد أن نشير إلى أن رؤية العالم، عند العلمي، تتقاطع مع رؤية العالم، عند الفلاسفة والمتصوفة المسلمين، ولاسيما على صعيد الإنسان الكامل الذي حاز على الجلال والجمال.

يتصف الجمال الحسي الأنثوي، في شعر العلمي، بصفة السمو، فهو جمال استثنائي مفارق لما هو اعتيادي، إنه جمال فائق وسام في آن معا. فهو لا يكون مؤنسا أو ممتعا، بقدر ما يكون مذهلا أو محيرا، وهذا يظهر بجلاء في "حربة" قصيدة "كيف إيواسي" أو "المحبوب" حيث يقول الشاعر:

كِيفْ إيْواسِي اللِّي افْرَقْ مَحْبُوبُه وبقَى بَلاَ عْقَلْ في الارْسَامْ افْرِيدْ
أنـــا كِيـــفْ اجْفانـــي احْبِـــيـــبْ قَلْبِـــي
ما خَلَّى غِيرْ صُورْتَـــهُ وانْعُوتُـــه واخْيالُـــه
من لاّ عَمْرِي انْظَرْتْ زِينْ في البْدُورْ ابْحالُه (د. ص375)

يظهر سمو الجمال الأنثوي في هذه الأبيات بشكل جلي، حتى يبدو أنه جمال قد هبط من عل، ولهذا فهو أسمى وأعلى، ففي نظم (سيدي قدور) العلمي، نجد المرأة وكأنها من عالم أسمى. وعلى الرغم من أن الشاعر يولي عناية خاصة بالجسد الأنثوي، فإنه يغذيه بالروحاني الذي هو أشبه باللاهوتي، وكأن عملية التخيل الشعري، في هذا الشعر تنهض على المزاوجة بين الناسوتي واللاهوتي.

إن قيام التخييل الشعري على المزاوجة بين الناسوتي واللاهوتي يؤكد أن التخييل هو، في الأساس، موقف رؤيوي من العالم، لا مجرد تقنية فنية، وبهذا فإن تعبيرات وتراكيب مثل: (الحسن، الزهو، ابهاك، البدر والتنوير) هي تعبيرات رؤيوية وتخييلية، في الآن نفسه، إن هذه التعبيرات ذات المخزون الديني أو الروحاني قد أسهمت في بلورة الجمال الأنثوي بوصفه جمالا يتقاطع فيه الناسوت واللاهوت أو بوصفه جمالا ساميا يمثل، الكمال الإنساني، بحسب رؤية الشاعر للعالم.

استعمل الشيخ عبد القادر العلمي رمز البرق للتعبير عن ولهه وعشقه وحبه الإلهي ما دام البرق في المصطلح الصوفي يعني: "أول ما يبدو للعبد من اللامع النوري، فيدعوه إلى الدخول في حضرة القرب من الرب للسير في الله "(26).

وقد استعمل المتصوفة البرق للدلالة على الذات الإلهية فقالوا: "حقق -يا أخي- نظرك في سرعة البرق إذا برق. فإن برق البرق كان سببا لانصباغ الهواء به. وانصباغ الهواء به سبب لظهور أعيان المحسوسات به، وظهور أعيان المحسوسات به سبب في تعلق إدراك الأبصار بها، والزمان في ذلك واحد، مع تعلقك تقدم كل سبب على مسببه. فزمان إضاءة البرق عين زمان انصباغ الهواء به، عين زمان ظهور المحسوسات، به عين زمان إدراك الأبصار ما ظهر منها، فسبحان من ضرب الأمثال، ونصب الأشكال، ليقول القائل: ثم، وما ثم. أو يقول: ما ثم، وثم. فوعزة من له العزة والجلال والكبرياء، ما ثم إلا الله، الواجب الوجود، الواحد بذاته، الكثير بأسمائه وأحكامه، القادر على المحال، فكيف الإمكان والممكن، وهما من حكمه، فوا الله ما هو إلا الله، فمنه وإليه يرجع الأمر كله"(27).

يعد (سيدي قدور) العلمي ممن يكثرون من استخدام هذا المصطلح للتعبير عن الحب المطلق الذي لا يأتيه الباطل، وفيه تتجسد العاطفة الصادقة، والنية الحسنة في أحسن صورها وأعظمها توضيحا وأعذبها ذوقا، ومن ذلك قال في قصيدة "فاطمة" الصفحة 354:

ماليكْ انْظيرْ يا وَلْفِي في اعْوانَسْ الْحْضَرْ انْتِ حَقْ افْريدَة العْصَـــرْ
حَـزْتـي الـتَّـنـْويـرْ وَدِّيتي الصُّولَة الْمْكَلْظَمَـة
البْدَرْ الْمْنيرْ فُوقْ اجْبينَكْ تَاكْـ بالْجْهَـرْ حُسْنَكْ يَخْطَفْ كَوْكَبْ البْصَرْ
كـبَـرْقْ إيـشِـيـرْ ابْسيفه حينْ اتْغَيَّـمْ السْمـاء

فالبرق ليس مجرد حركة طبيعية تتصل بتحولات الجو وتقلباته، ولكنه يتصل بالنفس، ويعبر عن أحوالها وتغيراتها الدائمة، لذلك فهو يجلي كل الغيوم، ويحرر من ضغط الهموم، ولواعج الآلام التي تعتصر فؤاد العاشق.

الحب العذري في "عشاقيات" العلمي: يرى شوقي ضيف أن: "الصوفية وجدوا في الحب العذري نبعا لا ينضب ولا يجف لمواجيدهم إزاء الذات الإلهية، بل وجدوا فيه خير ما يعبر عن لواعج الشوق المستعرة في حنايا صدورهم، وما قاسوا في حبهم من صنوف الآلام والبلايا والمحن"(28).

يتقاطع غزل الملحون مع الغزل العذري، في أن شاعر الملحون صور المرأة وهي محجبة ممنعة، تحوطها الأسوار، وكان الشاعر الولهان يطمع منها بنظرة أو إشارة، دون الطمع في المنادمة والخلوة، وكان هذا البعد والحرمان ينعكسان على فؤاد الشاعر الموله المتيم.

يتضح تقاطع الغزل الصوفي عند الشيخ عبد القادر العلمي والغزل العذري في المنظومة المعجمية التالية:

- "اشقايا، اشكايا، مالكي، مولايا..."(29)
- "نار هجرانك، امحاين اجفاك، حارت الادهان، التيه، الجفا..."(30)
- "أسباب السقام، العقيل هام، ضعف العظام، اغنيت على الما والطعام..."(31)

فالاتصال بالمحبوب –حسب هذه المنظومة المعجمية– تطبعه مجموعة من الصفات أهمها: التيه والسقم والاستغناء عن الطعام ثم الإحراق بالنار، وفي ذلك يقول المختار الكنتي: "نار تأكل الأغيار وتزيل الآثار، تنفجر عن التهابها العيون بالأنهار، وتحصد بوهجها جميع النبات والأشجار، حطبها الزيتون الأخضر، وحراقها اللوبان الأذكر، ورمادها المسك الأذفر وكيرها الذكر الأكبر، ضوؤها يذهب ضوء الشمس والقمر، ويسري بين النوم والسهر، أحجارها زمرد وياقوت، وأربابها أقوام جعلوا الفناء موت، اندمج غيبهم في شهادتهم وشهادتهم في غيبهم، ونومهم في يقضتهم، ويقضتهم في نومهم وموتهم في حياتهم، وحياتهم في موتهم، وآخرتهم في دنياهم، ودنياهم في آخرتهم"(32).

ومن أجل استمالة المتلقي ودفعه إلى الاستئناس بتجربة الحب الصوفي، لجأ (سيدي قدور) العلمي إلى الغزل العذري، لأنه يقترب من الشعر الصوفي حين يقوم على أسمى المشاعر الروحية وهي "الحب" الذي يصبح غاية في ذاته. وهذا ما يشير إليه جودت نصر بقوله: "ومما يتمم التناظر بين شعر الغزل العذري وشعر الحب الصوفي، أنهما بمعزل عن المآرب العاجلة الموقوتة، أو قل إنهما يحققان مقولة (الحب للحب) بحيث لا تكون للمحب غاية وراء محبوبه"(33).

استطاع الشاعر العلمي استدعاء أعلام الغزل العذري، وهذا ما يتضح في قوله:

وهو يا سيدي نصبر كما اصبر قلبي العشيق النحيب
قيس الغريم بهوى ليلة واشواق عنترة من عبلة والصبر طب من يتبلى
سيف المليح مسلـــول ماضي ارهيف مسقول بـــعـــد الوصـــــــول
يوريك اصدود اعجيبة ويمكـــن بـــجـــفـــاه حين قلبـــك كيتمنـــاه(34)

إن كلا من التجربة العذرية والتجربة الصوفية مفعمة بالحزن والغربة جراء فراق المحبوب، ومشوبة بالشوق والحنين إلى الماضي الجميل، ومن هنا نجد شاعرنا يتوسل في غزلياته الصوفية "العشاقيات" بقوالب أسلوبية موروثة عن الغزل العفيف، ومن هذه الأساليب خاصية الجنون التي وسمت شخصية بعض العذريين وخلخلت قواهم الشعورية نتيجة الصراع بين مبدأ العشق ومبدأ الواقع، مثل قيس بن الملوح الملقب بمجنون ليلى. ويماثل هذا الطابع ما شاع عند المتصوفة من أحوال الوجد والغيبة والاستهلاك في المحبوب نتيجة قوة التجليات الإلهية.

يقول الشيخ العلمي –قدس الله روحه– في قصيدة البتول 1، الصفحة 266:

أسْبَاب حُمْقِي وتَمْحاني مع اهْبالِي دَاتْ الشْفَر الغْلِيس والخَدْ المَشْعُول
اسَقاتْني من اخْمَرْها بكَاس مالِـــي وسْكَرْت بْحُبْها وسَلْبَتْنِي لا حُـــول

ويقول كذلك في قصيدة الطاهرة، الصفحة 294:

العْقِيَلْ هـــام والخاطَرْ يا سَايِلِي انْظَام والقَلْب اضْحَى كما الظْلام
واحْرام المْنَام وانْتَمَّتْ لِيَ المْكـــابْـــرَة ضُعْفْ العْظَام ولُونْ الدَّات كْسَاه الغْيَام
والعَيْن دمُوعْها اسْجَـــام حالِي اعْـــدام وادْوايَا عَنْد المْخَنْتـــرة

ويقول أيضا في قصيدة "كلثوم وطامو":

لا هْنَا لا رَاحة حتى اتْزُور كَلْثُوم
بُـــوســـالَـــفْ مَبْـــرُومْ
ومن سْبات الخاطَرْ بُوسالْفِينْ طامُو

طَلْقِي السْرَاح للغْرِيمْ بُـــودَوَّاح تَخْمَد الجْرَاحْ طال ضُرُّه واسْقامُه
واسْقِيهْ الرَّاح لا غْنَى لَهْفُه يَرْتَاح يَا ضَيْ الالْمَاح يا ابْها نُور نْيَامُـــه
جَفْنُه نُـــوَّاح من غْرَامَك سَرُّه بَاح تَكْمَد الجْرَاح يُومْ وَصْلَك لِمْقامُه
واسْبابِي في الهْلاَك كَلْثُوم وطامُو (د. ص 368)

والواقع أن المتمعن في قصائد الشيخ العلمي، يجدها زاخرة بالتعابير الغرامية، وهذه عادة الشعراء المتصوفة في تعابيرهم العشقية الجياشة التي تفيض بمعاني الحب تجاه الله تعالى.

يعتبر الحب الإلهي حجر الزاوية في الرؤية الصوفية، وهو الذي أخرج الكون من العدم، وهو تعبير عن وفاء الروح لخالقها، وقد وصل هذا الحب عند (سيدي قدور) العلمي إلى حد الوجد الذي يثير الزفير والشهيق والبكاء والصراخ، لأن التصوف بني على الحب الصادق العفيف، فهو سمة بارزة للتصوف، التزمه الصوفيون إيمانا بقدسيته، حيث ورد في المصحف الشريف (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)، وفي أحاديث الرسول (ص) ورد الحب بها كثيرا (اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك). والصوفية يعتبرون أعمالهم تقربهم إلى محبة الله تعالى، لذا أصبح الحب الصوفي حبا صادقا تتعلق الروح فيه بالحضرة الإلهية. وفي قوة هذا الوجد وجبروته يقول شاعرنا في قصيدة "الغيبة"،الصفحة 299:

وهو يا سيدي لَو كان الجْبَالْ اسْكَنْهَا الهْوَى اتْرِيبْ

لَو كان الْحْجَار إِيْدُوبُوا والقَفر اينحَطَّمْ بَعْشُوبُه من لِيعَة الْهْوَى واكْرُوبُه
لو كَان وَادْ مَـــزْرُوبْ ولا ارْيَاضْ مَخْصُوبْ هَـــــادُوا اعْـــــجُـــوبْ
الْهْوَى والعِشْقْ امْصِيبَة فـــي أول مَـــبْـــــدَاه هَكْدَاكْ اتْمامُـــه شـــوّاه

ويقول كذلك في قصيدة "اخديجة":

نار الاشْوَاق زَمْراجَة بِها اسْقِيم مَرْهُوج
وارْياح الْهْوَى تَرَكْتْها في ادْوَاخْلِي امْزِيجَة
لأنِّي اعْشِيق في الحاجَة في الغالْيَة أُمْ ادْمُوج
من مِير حُبها لِيَّ قال انْكُول من الهِيجَة (د. ص237)

اشتد الوجد بشاعرنا فأورثه السقم والوهن، وهذا ما يتضح بجلاء في قوله من قصيدة "فاطمة":

أَجْفاك اشْريرْ لازَمْني بْهْواكْ نَعْتْدَرْ جَفْني عادْ امْوابَدْ السْهَـــرْ
والـــنُّـــوم اهْجِيـــــر والدَّاتْ على القُوتْ ساقْمَة (د. ص354)

ويقول كذلك في قصيدة "كيف إيواسي" أو "المحبوب":

وهـــو يا سيـــدي ما بَانْ مالْكِـــي ما سِيفَطْ لِيَّ ارْسُـــولْ
نَرْجَاهْ كيف يَرْجَى الرَّاحَة الْمَرِيضْ
أو عَطْشَانْ إِيْرَاجِي الفِيضَ إلى اشْربْ وارْوَى يَشْفِي الغِيضْ
بلاَ غْرَاضِي جَا في اعْرَاضِي وسَرْتْ رَاضِـــــي
شَهْوَةْ عَقْلِي فِي شَهْوَتُه ومْرادِي في مْرَادُه (د. ص376)

يظهر أن الشاعر يتبرم من هجر المحبوب، وتنتابه حالة من حالات القبض أو الخوف من صده "ومن أدنى موجبات القبض أن يرد على قلبه وارد موجبه إشارة إلى عتاب، ورمز باستحقاق تأديب"(35)، ويطول انتظار الصفح، وانفتاح الأبواب ويقف بين الرجاء واليأس.

والواضح أن حالة القبض (الخوف) طالت بالعلمي، فلقي فيها من العذاب ما فاق احتماله، فأخذ يصيح:

ارفق أما لكي بعبدك واعطف يا صابغ النيام
يا بدر أنبا من القتام
يهديك الله لا اتعذب قلبي قاصيت ما كفى

ويقول أيضا في قصيدة "الجافي 1":

أَجَافِي لله عِيدْ لِي كِيفْ اجْرَى واشْ انْهُ أسْبَاب هَذا الهَجْرة
وعْلاشْ يا الجَافِي رَسْمِي مَهْجُور
بَعْد ألاَّ كُنْتِي في الوَاحِي تَقْرَى ومْلاَزَم الأوْقات الحَضْرَة
وَلِّيتْ للْهْوَى بَحْكامْك مَيْسُــور (د. ص269)

يتضح من خلال هذه الأبيات أن الشاعر انتقل من القبض والخوف إلى الرجاء والطمع في رحمة الله، ونيل الجود منه تعالى.

يمشي شاعرنا في طريق مليء بالصعاب والأشواق، صعاب الهجر والصد وأشواك الوشاة والرقباء، وهو يجاهد ويعاني، فهو شديد التعلق بالمحبوب، الذي سلب روحه وعقله وأشرف به على الهلاك. ومهما صد عنه محبوبه و لم يبادله الهوى والحب، فإنه لا ييأس من بلوغ الهدف المنشود، فالصبح قريب، وهو لا يكف عن الرجاء، مهما تكاتفت الدياجي وتلاحقت الظلمات، فالحبيب سيدنو منه وسيفوز بلقائه، وسينهل من مورده العذب ما يشفي غليله، ويزيل حزنه وشجنه.

وهذا الجحيم سيصبح نعيما وربيعا باسما حين يفوز بمحبوبته بوصل أو لقاء أو زيارة، فإن الدنيا تشرق من حوله، وتصبح بهجة وسعادة خالصة، وهي سعادة لا ينالها إلا بالتعب والصبر الطويل. وهذا كله تحقق في آخر قصيدة من قصائد "العشاقي" الواردة في ديوان (سيدي قدور) العلمي والموسومة بـــ"ما سعدها ليلة" أو "الوصال" الصفحة 383، حيث يبرز فيها مدى غبطته وسعادته بوصال محبوبته فيقول:

ولِلَّهْ الحَمْدْ والشْكُـــــرْ زالْ اغْتـــامِـــــي واطْلَعْ بين ابْرُوجْ نَايَرْ نَجْمِي كَنْ اهْلالْ
عافاني رَبِّي ابْريتْ من ضُرْ اسْقامِـــــي والمَقْصُودْ اللِّي اطْلَبْتْ وافاني به الحالْ
واعطَفْ لي وَقْتْ السْرُورْ وازْهاتْ إيَّامِي ولقَحْ غُصْنِـــي بَعْـــدْمـــا إيْياسْ وادبالْ
واتْوقَدْ بَدْرِي وتاكْـــ مَسْراجْ اهْمـــامِـــي ما باقِي غيرْ الْمعانْقَة ورضيعْ القُمْصالْ

انطلاقا مما سبق، نستنتج أن شعر الملحون الصوفي هو امتداد لشعر الزهد، بيد أن شعراء الزهد كانت قصائدهم في التقرب إلى الله تعالى، طمعا في الجنة والجزاء الحسن، فكان شعرا مفعما بألفاظ التوسل والرجاء والتحذير من النار، وملذات الحياة الدنيا وشهواتها والتذكير بالآخرة، أما الشعراء الصوفيون فإن قصائدهم وأشعارهم تنبعث من هواجس الحب والشوق والوله والعشق لخالقهم، لذا اختاروا الألفاظ الغزلية وكلمات الحب الخالص في التعبير عن مكنون أنفسهم وأفكارهم، وما يداخلها من حب وشوق إلى الله تعالى. وهم في ذلك لا يختلفون عن شعراء الحب العذري، "وما الحب العذري

إلا صوفي خالص، صوفي في ظمئه الذي لا ينتهي إلى رؤية الحبيب ولقائه، وصوفي في تغنيه بعشقه الجامح الذي كل قلبه وكل أهوائه وعواطفه ومشاعره، وصوفي تعييه الحيلة وتعوزه الوسيلة إلى لقاء المحبوب، وإنه ليسير في طريق لا نهاية لها، ولا سبيل إلى الدنو من غايتها إلا بإسلام الروح، وصوفي في ارتفاعه عن كل صغائر الحياة، لعله يقترب من قدس الأقداس، وصوفي في ابتهاله وذله وضراعته"(36

وبناء على ما تقدم، نستطيع القول إن الحب الصوفي هو من قبيل الحب لذات "الله" أي أنه بريء من الغرض، منزه عن المتعة، فليس هو من قبيل الخوف من النار أو الطمع في الجنة، يقول الجنيد: "كل محبة كانت لغرض، إذا زال الغرض، زالت تلك المحبة"(37). أما المحبة الصوفية فهي التي تمحو كل ما سوى المحبوب. وهذا المحو يسمى في اصطلاح المتصوفة بالفناء. فما هي مظاهر الفناء في شعر الشيخ عبد القادر العلمي؟

الفناء عند الشيخ العلمي :الفناء لغة" نقيض البقاء، وفنى يفني فناء: هرم وأشرف على الموت؛ ومنها تفاني القوم قتلا، أي أفنى بعضهم بعضا في الحرب"(38) ويدل الفناء في القرآن على الموت والزوال مقابل البقاء والدوام، يقول تعالى: "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"(39).

يعتبر الفناء والبقاء عند المتصوفة مصطلحين متلازمين، "الفناء هو سقوط الأوصاف الذميمة، والبقاء بروز الأوصاف المحمودة"(40)، قال السهروردي: "الفناء عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فني به، أو هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى عليه السلام حين تجلى ربه للجبل"(41).

وعموما فالفناء وما يشبهه من ألفاظ مجازية كالمحو، "يمكن إيجاز معناها في غيبة الصوفي عن الإحساس بالذات وبأشياء العالم، ويكون حاضرا في حال الشهود، حيث تنهال عليه الأنوار الإلهية في لحظات الإشراق الخاطفة"(42).

يعد الحب عند الشيخ (سيدي قدور) العلمي أسمى وأرقى أنواع العلاقات في الوجود، يتحقق نتيجة صفاء القلب ونقائه مما فيه من شوائب مختلفة الأنواع، وتظل العلاقة بين المحب ومحبوبه، تسمو وتظهر وتتشابك، لتفضي إلى تطويع إرادة المحب تحت تصرف محبوبه، وفي النهاية يمنح المحب أغلى ما لديه، وأشرف ما يملكه لمحبوبه، وهو روحه التي بين جنبيه. إنها الميل الدائم نحو المحبوب، بعد ذلك تعقبها لحظة من أخطر لحظات الحب بأن ينسى الشاعر نفسه فتذوب صفاته في صفات محبوبه، فلا

يدرك شيئا إلا ما رغب، ويسعى المحب بكل ما لديه إلى موافقة محبوبه في رغباته لإرضائه، ومن شعره الذي يعبر عن قضية الفناء قوله في قصيدة: "ورقة مول الحب":

نَعْتَادُه زَعْمَا إيحَبْنِي ويلاَزَمْ وَكْرِي في جَمْعْ الأوْقاتْ بلاْ مَنَّة بلا اجْمِيلْ
ما نَعْرَفْ اليُومْ من ادْهَاه والسَّهْوْ علَى الْحبِيبْ عار
نَارْ الهَجْرَة اكْوَاتْ قَلْبِي وافْنائُه (د. ص 248)

ويقول في قصيدة "الخد الذهبي":

رَق وافْنَـــى القَلْب اللَّهْبِي
حاجْبِين ترصدوا بَمْدَاد من اقْلَم سَرْيانـــي
سَرْهُم حَكْمَة للتَّجْلِيـــب (د. ص276)

لقد استولى الحب على قلب الشاعر وطهره من أي وجود غير المحبوب، لأن نار الحب تنقي القلب وتصفيه من كل الأردان والشوائب. فشدة تعلق الشيخ عبد القادر العلمي بمحبوبته وفناؤه في محبتها، جعله ينصرف عن كل ما تتميز به من محاسن ظاهرية وملامح أنثوية، فتبدو معانيها الصوفية قريبة من الحقيقة العرفانية.

هذا هو الفناء الذي يصل إليه الشيخ عبد القادر العلمي حين تشتد به المحبة لله تعالى، ويعتبر الفناء حالا عارضا لا يدوم للمتصوفة، لأنه لو دام لتعارض مع أدائه لفروض الشرع. وبعد مرحلة الفناء تأتي مرحلة البقاء، "وهي قيام الأوصاف المحمودة، فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة، استقرت عنه الصفات المحمودة"(43).

1-ابن منظور، لسان العرب، تحقيق أمين عبد الوهاب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1999، ج 3، ص، 7.
2-ابراهيم اليازجي، نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، مكتبة لبنان، ج 1، ط 3، 1985، ص، 179.
3-شوقي ضيف، الحب العذري عند العرب، مطبعة دار نوبار للطباعة، شبرا، ط 1، يناير، 1999م، ص، ص، 14-15.
4-عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2001، ص 144.
5-محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث القاهرة، 1996م، ص، ص، 234-236.
6-سورة آل عمران، الآية: 31.
7-سورة المائدة الآية: 54.

8-محمد عبد الله الشرقاوي، الصوفية والعقل، دراسة تحليلية مقارنة للغزالي وابن رشد وابن عربي، دار الجيل، الطبعة الأولى، 1995، ص، ص، 232-233.

9-أدونيس، الصوفية والسريالية، دار الساقي، الطبعة الأولى، 1992، ص، 23.

10-رضوان الصادق الوهابي، الخطاب الشعري الصوفي والتأويل، منشورات زاوية للفن والثقافة،، 2007، ص، 162.

11-ديوان الشيخ عبد القادر العلمي، قصيدة "اخديجة" ص، ص، 237-238.

12-نفسه، قصيدة "ورقة مول الحب" ص، ص، 247-258.

13-نفسه، قصيدة "فضيلة"، ص، 259.

14-ابن عربي، فصوص الحكم، ج 1، تعليق أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، 1980م، ص .317

15- Henri Corbin, l'imagination créatrice dans le Soufisme d'Iben Arabi, Ed, Flammarion, Paris, P 149.

16-محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 1997، ص، 337.

17-ديوان الشيخ عبد القادر العلمي قصيدة صابغ الانجال، ص 335.

18-نفسه قصيدة فاطمة، ص 353.

19-بايير، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، ترجمة زكرياء إبراهيم، دار مصر للطباعة، 1966، ص 376.

20-سعد الدين كليب، التجربة الجمالية في شعر أبي ريشة، ضمن مجلة علامات، المجلد18، الجزء71 ،ص238.

21-بايير، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، ترجمة زكرياء إبراهيم،م.س،ص226.

22-نفسه،ص276.

23 -الديوان، قصيدة "ارقية" ص 253.

24-نفسه،قصيدة"البتول"، ص 265

25-نفسه ،قصيدة" فاطمة"، ص 353.

26-الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، طبعة فلوغل،نقلا عن محمد ابن الصغير،بناء القصيدة الصوفية في الشعر المغربي،أحمد التستاوتي نموذجا،مطبعة بني يزناسن،2004،ص656.

27-محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية،ورد عند رضوان الصادق الوهابي، الخطاب الشعري الصوفي والتأويل، منشورات زاوية للفن والثقافة، ط 1، 2007، ص، 148.

28-شوقي ضيف، الحب العذري عند العرب، مطبعة دار نوبار للطباعة، شبرا، ط 1، يناير 1999، ص، 23.

29-ديوان العلمي، قصيدة" الجاف"، ص 229.

30-قصيدة" ارقي"، ص 255.

31-قصيدة" الطاهر"، ص 300.

32-محمد الظريف، الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،ط1، 2002ص335.

33-عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983م، ص، 132.

34-الديوان، قصيدة الغيبة، ص، .298

35-عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية،م.س ، ص، 210.

36-شوقي ضيف، الحب العذري عند العرب، ط 1، 1999، ص، 23.

37-الراغب الأصفهاني،محاضرة الأدباء ومحاورة الشعراء البلغاء،ورد عند محمد بن الصغير،بناء القصيدة الصوفيو في الشعر المغربي،أحمد التستاوتي نموذجا،م.س،ص313.

39-ابن منظور، لسان العرب، ج3، تحقيق أمين عبد الوهاب، دار إحياء الثراث العربي، بيروت، لبنان، 1999، ص 342.

39-سورة الرحمن، الآية، 26.

40-عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية،م.س، ص 67.

41-شهاب الدين السهروردي، عوارف المعارف،م.س، ص520.

42-ناجي حسين جودة، المعرفة الصوفية، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1992، ص167.

43- عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، ج 1،م.س، ص، 211.

محور العدد

التداولية ومعاني النص

صدر حديثا

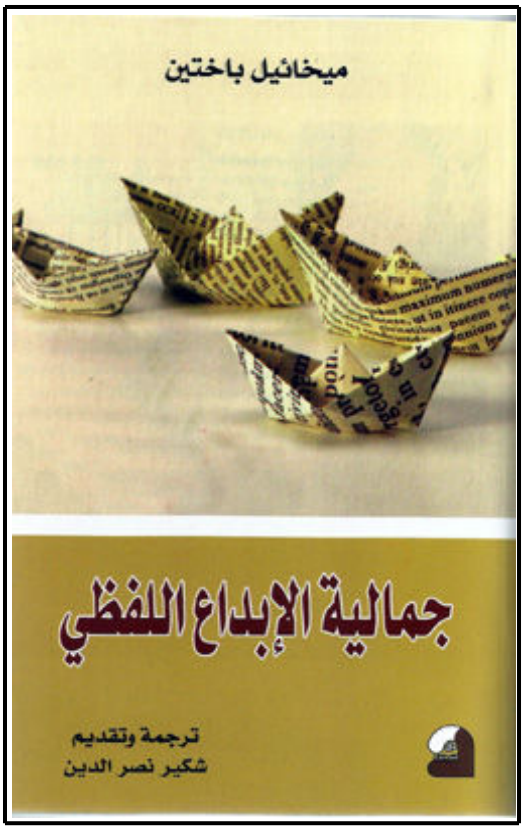
ميخائيل باختين
جمالية الإبداع اللفظي
ترجمة وتقديم
شكير نصر الدين